وقفات مع كتاب
إحياء علوم الدين للغزالي

عبدالرحمن بن محمد سعيد دمشقيّة
بيروت - لبنان

تهذيب:

سعد بن عبد الرحمن الحصيِّن

الطبعة الأولى ١٤١٣هـ
الطبعة الرابعة ١٤١٩هـ

****

رقم التصنيف: ٢١٩
المؤلف ومن هو في حكمه: عبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية
عنوان الكتاب: وقفات مع كتاب احياء علوم الدين للغزالي
الموضوع الرئيسي: ١ـ الديانات
: ٢ـ التصوف
رقم الإيداع: (١١٧٣/٧/١٩٩٨)
بيانات النشر: عمان/ دار البشير للنشر
• تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر (١٠٠١/٧/١٩٩٨)

الناشر
وقف الأنصار
طيبة الطيبة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: فقد أُخِذ محتوى هذه الرسالة من دراسة شاملة بعنوان: «أبو حامد الغزالي والتصوف» للشيخ عبدالرحمن دمشقية، من علماء لبنان.

وقد رأينا إفراد هذه الرسالة بالنشر لكثرة الأخذ من «إحياء علوم الدين» دون تنقية. وهو على ما فيه من خير وحق وهدى يحتوي على طامات من الشر والباطل والضلال عن هدي الكتاب والسنة، ولكن المتعصبين له ينشرون اليوم زلّاته وشطحاته.

فليس لنا إلا أن نطلبَ الله المغفرة لأبي حامد ولنا جميعاً، ونبيّن بعض مخالفات فكره لشرع الله؛ نصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

الفصل الأول

نماذج من فكر الغزالي

من أقوال أبي حامد، محمد بن محمد الطوسي المشهور بالغزالي المولود والمتوفى بطوس (٤٥٠-٥٠٥)، في الخلوة:

● «وأما حياة الخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر، فإنهما دهليز القلب، . . . وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم، وإن لم يكن له مكان مظلم فليلف رأسه في جيبه، أو يتدثر بكساء أو إزار، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق، ويشاهد جلال الحضرة الربوبية»[١].

استدل على ذلك بقول الله تعالى: ﴿يا أيها المدثر﴾، وقوله تعالى: ﴿يا أيها المزّمّل﴾.

وهل أنزل الله هذه الآيات لتحقيق هذا النوع من الخلوة، أم أنها نصّ في الأمر بترك خلوة الفراش إلى الدعوة إلى الله ببعثة

---

(١) الإحياء ٣/٧٦.

محمد ﷺ؟ وهل أمر الله بهذه الخلوة أو سنّها رسوله ﷺ؟

ومنها قوله في الخلوة أيضاً:

● «ويخلو بنفسه في زاوية، ويقتصر على الفرائض، ولا يقرن همّه بقراءة قرآن، ولا بالتأمل في تفسير، ولا يكتب حديثاً»[1].

ومتى كان رسول الله ﷺ وأصحابه أئمة الهدى يتعبدون الله بترك قراءة القرآن وتدبّره ونشر السّنّة؟

ومنها قوله:

● «إن كان في عالم الملكوت جواهر نورانية شريفة عالية، يُعبَّر عنها بالملائكة، منها تفيض الأنوار على الأرواح البشرية، ولأجلها تُسمى أرباباً، فيكون الله رب الأرباب لذلك»[2].

[أليس في نصوص الكتاب والسّنّة وفقه أئمة القرون المفضّلة ما يغني المؤمن عن هذا الخلط والظنّ والفكر والضلال؟].

ومنها قوله:

● «واطوِ الطريق، فإنك بالواد المقدس طوى، واستمع بسر

---

(١) الإحياء ٣/ ١٩.

(٢) مشكاة الأنوار ٨٢٨.

قلبك لما يوحى، فلعلك تجد على النار هدى، ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودي به موسى: ﴿إني أنا ربك﴾!!![1]».

[وهل شرع الله للمسلم التطلع إلى الوحي بعد انقطاعه؟].

ومنها قوله:

● «إعلم أن المريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يشغل نفسه بالتزويج، فإن ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجرّه إلى الأنس بالزوجة، ومن أنس بغير الله شُغل عن الله. ولا يغرنّه كثرة نكاح رسول الله ﷺ فإنه كان لا يشغل قلبه جميع ما في الدنيا عن الله تعالى، فلا تُقاس الملائكة بالحدّادين.. قال أبو سليمان الداراني: من تزوج فقد ركن إلى الدنيا»[2].

[لاحظ مخالفة هذا لقول الله تعالى: ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ وأمْر الرسول ﷺ لأمته: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج» متفق عليه].

---

(١) الإحياء ٤/٢٥١.

(٢) الإحياء ٣/١٠١.

ومنها قوله:

● «وإن كان [المريد] يثق بنفسه أنه لا يزني، ولكن لا يقدر مع ذلك على غضّ البصر عن الحرام فترك النكاح أولى له... والنظر زنى العين، ولكن إذا لم يصدقه الفرج فهو إلى العفو أقرب»(١)

إن ما قاله الغزالي هنا يؤدي إلى الإستهانة بالمعصية والاصرار عليها، وهذا يتعارض مع قوله في موضع آخر من إحيائه: «ولا تستصغر معصيةً أصلاً، فإن الله خبأ غضبه في معاصيه، فلعل مقت الله فيه» ومثل هذا التناقض كثير في فكره لأن القلب متقلب، أما نصوص الشريعة فثابتة. كان يكفيه قول الله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾.

ومنها قوله:

● «عند أول سلوك طريق التصوف تبتدىء المشاهدات والمكاشفات، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقّى الحال من مشاهدة الصور والأمثال درجة يضيق عنها نطاق

---

(١) الإحياء ٢/ ٣٥.

النطق؛ فلا يحاول مُعبّر أن يعبّر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه[1]. . . وعلى الجملة ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ، بل الذي لابَسته تلك الحالة لا يزيد على أن يقول:

وكـان مـا كـان ممـا لسـت أذكـره
فظـنّ خيـراً ولا تسـأل عـن الخبـر»[2]

بهـذا يعتـرف الغـزالـي بتشـابـه طـرق الاتحـاد والحلـول و[التّصوف].

لم يعتمد المتصوّفة مصادر الإسلام الشرعية: الكتاب والسنة، فراحوا يبحثون عن مصدر آخر في الكشف الذي ظنّوه فناء في الله اقتبسوه من الوثنية الهندية.

ولئن طلبت الدليل على كونه فناء في الشيطان فاسمع ما يقولونه عند هذه الحال من الكفر [الهامش رقم (١)].

---

(١) كقول القائل منهم: سبحاني ما أعظم شأني، وقول الآخر: أنا الحق، وما في الدارين غيري.

(٢) المنقذ من الضلال ٥٠.

[وفي معالجته لهذا الأمر مخالفة صريحة لأصول الشريعة في إجراء الأحكام على الظاهر فالله وحده يعلم ما في الصدور].

فالغزالي لم ينكر الوهم الوثني الصوفي بالفناء في الله، لأنّه قال في الصحيفة نفسها، بأن الفناء بالكلية في ذات الله هو آخر مقامات الصوفية، وإنما أراد بذلك النهي عن الإنكار على من ظهر من قوله اعتقاد الحلول والاتحاد والوصول.

ومنها قوله:

● «ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيباً، ولا أكمل صنعاً...»[1]. وهذا مساوٍ للقول بأنه ليس للقدرة الإلهية الزيادة في الخلق. [وكان يغنيه عن ذلك قول الله تعالى: ﴿وصوّركم فأحسن صوركم﴾، وقوله تعالى: ﴿وخلق كل شيء فقدّره تقديراً﴾ وهذا هو الفرق بين الوحي والفكر].

ومنها قوله:

● «فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يُلام عليها

---

(١) الإملاء على إشكالات الإحياء للغزالي ٣٥/٥ (ملحق بالإحياء) والإحياء ٢٥٨/٤.

حتى يسقط من أعين الخلق. وهذا مذهب الملامتية [من المتصوفة] إذ اقتحموا الفواحش في صورتها ليُسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلموا من آفة الجاه[1]؛ كما فعل بعضهم، فإنه عُرف بالزهد وأقبل الناس عليه، فدخل حماماً ولبس ثياب غيره، وخرج فوقف في الطريق حتى عرفوه. فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وقالوا: إنه طرّار، وهجروه»[2]. «وعن بعضهم أنه كان يعالج قوة الغضب ويتكلف صفة الحلم، فكان يعطي السفهاء الأجر ليجبهوه بالشتم في المحافل فيتعوّد احتماله، فصار بحيث يضرب به المثل في الحلم. وآخر عالج حب المال بأن باع كل ما يملك ورمى بثمنه في البحر.

وعبّاد الهند[3] يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول ليلة

---

(١) ترك الرجل العمل خوفاً من الرياء يعدّ رياء. فما بالكم بمن يجهر بالمعاصي والموبقات خشية إحسان الظن به؟.

(٢) الإحياء ٣/ ٢٨٨.

(٣) وهؤلاء الوثنيون مصدر من مصادر التصوف، [بل هم المصدر الأول للتصوف بين المسلمين واليهود والنصارى، ومنهم أخذت فكرة الوصول والفناء، والوحدة والاتحاد، والفرد الكامل، والذكر القلبي، وضرب «الشيش»، والتسبيح =

على رجل واحدة لا ينتقل عنها[1].

وحكي عن الشبلي أنه عالج البخل بأن قام ورمى أمواله في دجلة، وقال: ما أعزَّكِ أحد إلا أذَّله الله عز وجل.

عقَّب الغزالي على ذلك بقوله:

«فكذلك الذي يريد علاج البخل ينبغي أن يفارق المال «تكلّفاً» بأن يبذله، بل لو رماه في الماء كان أولى به من إمساكه إياه مع الحب له»[2].

وماذا لو أطعم به الجياع أو جهّز به الدعاة إلى الله الغزاة في سبيله؟ أليس أقرب للشرع والعقل من هذه الطريقة الحمقاء في معالجة البخل؟وأين هذا من شرع الله في كتابه: ﴿ولا تبذّر تبذيراً. إنّ المبذّرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربّه كفوراً﴾.

ومنها قوله:

= بالخرز، والتّمايل عند الذكر، والذكر بالاسم أو الضمير المفرد].

(١) الإحياء ٣/ ٦٢.

(٢) الإحياء ٣/ ٦٢، ٢٦٢. وانظر ميزان العمل ٥٣.

● «إن من أولياء الله من تزوره الكعبة وتطوف به»[1].

ونقول: هل زارت الكعبة رسول الله ﷺ وصحابته في المدينة وهم خير أولياء الله؟.

ومنها قوله:

● «وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه.. بل يلزمه القعود في البيت، فإذا صار صاحب قميصين وسروالين ومنديلين فقد خرج من جميع ألوان الزهد من حيث المقدار»[2].

ولو أنا عرضنا كلام أبي حامد الغزالي على دين الإسلام لما وجدنا فيه ما يوافقه، وإنما نجده في إنجيل النصارى المحرّف: فقد ورد فيه: «ولا يكون للواحد ثوبان»[3].

ومنها قوله:

● «يجوز للصوفي تمزيق الثياب الجديدة (أثناء السماع) إذا قطّعه قِطَعاً مربعةً تصلح لترقيع الثياب والسجادات.. فإن

---

(١) الإحياء ١/٢٦٩.
(٢) الإحياء ٤/٢٣١.
(٣) إنجيل لوقا ٩:٣.

الكرباس يُمزّق حتى يُخاط منه القميص ولا يكون تضييعاً»[1].

علّق ٱبن الجوزي على ذلك قائلاً:

«ولقد عجبت من هذا الرجل كيف سلبه حب مذهب التصوف عن أصول الفقه ومذهب الشافعي.. وليس العجب من تلبيس إبليس على الجهال فيهم، بل علي الفقهاء الذين اختاروا بدع الصوفية على فقه أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد، رضوان الله عليهم أجمعين»[2].

ومنها قوله:

● «إعلم أن الكذب ليس حراماً لعينه، بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو غيره»[3].

قلت: هب أن رجلاً حدّث آخر أحاديث كاذبة لا يحصل بها أي ضرر عليه، فما حكم ذلك في دين الإسلام؟ أيكون مباحاً؟ [أليس من علامات المنافق أنه إذا حدّث كذب؟].

---

(١) الإحياء ٢/ ٣٠٤.
(٢) تلبيس إبليس ٢٦٣-٢٦٤.
(٣) الإحياء ٣/ ١٣٧.

ومن ذلك قوله:

● أن صلاة المنفرد أولى من صلاة الجماعة إن كان خشوعه يزيد بانفراده.

وقد أنكر عليه السبكي هذه الفتوى على تعصبه له بقوله: «ولا تُترك سنّة رسول الله ﷺ التي افترضها قوم وشرطها آخرون لصحة الصلاة لمثل هذه الخيالات»[1].

ومنها ما حكاه عنه المازري:

● أنه استحسن ابتداء قص الأظافر بالسبابة، لأنّ لها الفضل على بقية الأصابع، ولكونها المسبّحة. وقد تعصب له السبكي قائلاً بأنه ليس في ذلك كبير أمر، ولا مخالفة شرع، وذكر بأن هنالك رواية عن علي رضي الله عنه في ذلك غير أنها لم تثبت ثم قال:

«وقد سمعت جماعة من الفقراء يذكرون أنهم جرّبوه فوجدوه لا يخطىء، وأن من داوم عليه أَمِنَ من وجع العين».

وقد علّق على ذلك الدكتور زكي مبارك قائلاً:

«والسخف ظاهر كل الظهور في هذا الجواب وإلا فما هي

---

(١) طبقات السبكي ٤/ ١٤٤.

الصلة بين قص الأظافر بهذه الكيفية وبين الأمن من وجع العين!»[1].

وكيف يقول علي بن أبي طالب [رضي الله عنه ذلك بلا سند من الشرع ولا العقل].

ومنها قوله:

«..فالاهتمام بالرزق قبيح بذوي الدين، وهو بالعلماء أقبح.. فإن الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن»[2].

ما رأي الغزالي في عالم يستقبح الكسب والسعي طلباً للرزق، [ويستبدل الفكر الباطن بالوحي؟، وقد ثبت عن خير هذه الأمة السعي في أرزاقهم].

ومنها: أنه خصص باباً في آداب التسول حثّ فيه المتسوّل على التأدّب بالآداب التالية:

● «(آداب التسوّل): يبدي الفاقة بصدق الحقيقة، ويُظهر السؤال بلطافة القول، ويأخذ ما أُعطي بمقابلة الشكر -وإن قلّ-

---

(١) الأخلاق عند الغزالي ١١٠ ط الشعب - مصر.

(٢) الإحياء ٤/ ٢٧٥.

وحُسنِ الدعاء[1]».

وقد علّق محقق كتاب المنقذ من الضلال -الأستاذ محمد محمد جابر- على هذا الأدب العجيب بقوله:

«لعل الأولى حذف مثل هذه التراجم من كتب المسلمين، إذ [كيف يكون للتسوّل] آداباً بعد أن ذكر الغزالي في الإحياء أنه حرام من غير ضرورة؟

فهذه تعاليم تنافي عزة الإسلام وأهله، والأولى أن تُكتَب الفصول في علاج هذا المرض واستئصاله من جسم الأمة».

ومنها تصنيفه الصالحين:

● ١ - «الصنف الأول: الأذكياء، الذين لا يطلبون الجنة بل يحتقرونها، وإنما يطلبون مجالسة رب العزَّة.

٢- الصنف الثاني: البله، الذين يتمتعون في الجنة بالنسوان والطعام والشراب كالبهائم»[2].

[وأين هذا التصنيف مما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله

---

(١) الأدب في الدين ١٢٤.

(٢) الإحياء ٤/ ٣٣٥.

ﷺ من الترغيب والتشويق في ملذّات الجنة؟ قال الله تعالى في نعيم السابقين المقرّبين: ﴿وفاكهة مما يتخيّرون. ولحم طير مما يشتهون. وحور عين﴾. وقال تعالى في نعيم أصحاب اليمين: ﴿وفاكهة كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة. وفرش مرفوعة. إنا أنشأناهن إنشاء. فجعلناهن أبكارا. عربا أترابا﴾. وقال تعالى في نعيم الأبرار: ﴿يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾. وقال النبي ﷺ في نعيم أول زمرة يدخلون الجنة: «ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن» متفق عليه].

وبعد، فهذه نماذج من عجائب أقوال الغزالي التي كتبها بعد سلوكه طريق التصوف، الذي وصفه بأنه «المنقذ من الضلال»، [والمنقذ الحقيقي من الضلال: كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وليس للتصوف فيهما اسم ولا رسم].

الفصل الثاني
رأي الغزالي في القرآن

أولاً: التأويل الباطني.

[نزع المتصوفة إلى ما نزع إليه الباطنيّة عامّة من تقسيم العلم الشرعي إلى: ظاهر وباطن، أو علم الطريقة وعلم الحقيقة، وكان الغزالي رائداً لهم في ذلك كما هو واقع حاله في فتح أبواب التصوف على مصاريعها لمن بعده، وتيسير الجهر به، بعد أن كان يتسلل إلى عقيدة المسلم وعبادته على استحياء وحذر.

وهذه نماذج من تفسيره آي القرآن المحكمة]:

● «واستعاذ إبراهيم ﷺ فقال: ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾، وعنى بها هذين الحجرين: الذهب والفضة»[1].

---

(1) الإحياء ٣/ ٢٣٥، وميزان العمل ١١٥.

● «﴿فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء﴾: أراد به من صفات الربوبية»[1].

ومثل هذا كثير في كتبه الأخرى مثل:

● تفسيره خلع النعلين في قول الله تعالى لموسى: ﴿فاخلع نعليك﴾ بقوله: «بل أقول: موسى فهم من الأمر بخلع النعلين: إطرح الكونين؛ فامتثل الأمر ظاهراً بخلع النعلين وباطناً بخلع العالمين»[2].

وعلق ابن تيمية (توفي ٧٢٨) على هذا التأويل بقوله: «[هذا دأب] المتأولة المتفلسفة... الصابئة ومن حذا حذوهم من القرامطة والباطنية وأصحاب رسائل إخوان الصفا»[3]، «ومن هنا دخل أهل الالحاد من أهل الحلول والوحدة والاتحاد»[4].

● ونقل عنه ابن الجوزي (توفي ٥٩٧) قوله: «المراد بالكواكب والشمس والقمر (اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله وسلامه

---

(١) الإحياء ١/ ٢٩٢.

(٢) مشكاة الأنوار: ٣٠.

(٣) مجموع الفتاوى ٦/ ١٨٠.

(٤) درء تعارض العقل والنقل ١/ ٣١٨.

عليه): أنوار، هي حجب الله عز وجل. ولم يُرِد هذه المعروفات».

قال ابن الجوزي: وهذا من جنس كلام الباطنية[1].

● وأوّلَ قولَ الله تعالى: ﴿فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾ بأن من بلغ رشده من العلم ينبغي أن يبث إليه حقائق العلوم ويرقّى من الجلي الظاهر إلى الدقيق الخفي الباطن[2].

● وأوّل قول الله تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ بأن حفظ العلم وإمساكه عمن يفسده العلم أولى[3].

ثانياً: المفاضلة بين القرآن والسماع.

ذكر الغزالي في كتابه باباً عن السماع أسهب فيه الكلام عن أحوال أهله ووجدهم. وذكر فيه أدلة القائلين بتحريمه وناقشها، وأدلة القائلين بإباحته ووافقها. ثم أجاب عن سؤال مفترض:

«فإن كان سماع القرآن مفيداً للوجد فما بالهم يجتمعون على سماع الغناء من القوّالين دون القارئين؟» قال الغزالي:

---

(١) تلبيس إبليس ١٦٦.
(٢) ميزان العمل ١١١.
(٣) ميزان العمل ١١١.

«. . . فاعلم أن السماع أشد تهييجاً للوجه من القرآن من سبعة وجوه».

(الوجه الأول): أن جميع آيات القرآن لا تناسب حال المستمع. . فمن استولى عليه حزن أو شوق أو ندم فمن أين يناسب حاله قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأُنثيين﴾ وقوله تعالى: ﴿والذين يرمون المحصنات﴾؟. . . وإنما المحرك لما في القلب ما يناسبه.

(الوجه الثاني): أن القرآن محفوظ للأكثرين، ومتكرر على الأسماع والقلوب.

ولمّا سُمع أولاً عظم أثره في القلوب.

وفي المرة الثانية يضعف أثره.

وفي المرة الثالثة يكاد يسقط أثره.

وإلى ما ذكرناه أشار الصِّديق رضي الله عنه حين رأى الأعراب يقدمون فيسمعون القرآن ويبكون فقال: (كنا كما كنتم ولكن قست قلوبنا).

فإن التكرار على قلبه اقتضى المرون عليه وقلة التأثر به لِما

حصل له من الأنس بكثرة استماعه»[1].

عجباً! ألم يقل الغزالي غير مرة في الإحياء أن القرآن لا يخلق على كثرة الترديد، وأن القلوب لا تمله[2]؟! ومن أين أتى بهذه القصة الملفّقة التي يحكيها عن أبي بكر رضي الله عنه؟.

لقد ثبت في الصحيحين أن الرسول ﷺ أمر أن يصلي أبو بكر بالناس أثناء مرض موته ﷺ قائلاً: «مروا أبا بكر فليصل بالناس». فقالت عائشة رضي الله عنها: إن أبا بكر إذا قام لم يُسْمع الناسَ من البكاء فمر عمر فليصل. فقال: «مروا أبا بكر فليصلّ بالناس». فقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما: قولي له إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يُسْمع الناس. ففعلت حفصة فقال رسول الله ﷺ: «مه، إنكن لأنتنّ صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصلّ بالناس»[3].

---

(١) الإحياء ٢/٢٩٩.
(٢) الإحياء ١/ ٢٧٢-٢٨٩.
(٣) أخرجه البخاري ١/١٧٦، ومسلم (٤١٨) و (٤٢٠) والبيهقي في سننه ٣/ ٨٠ وابن ماجه (١٢٢٥) و (١٢٢٦) وأحمد في المسند ٦/٩٦ و ١٥٩ و ٢٣١ و ٢٧٠.

وفي لفظ آخر للبخاري عن عائشة قولها: «إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ غلب عليه البكاء»[1]، وهذه الرواية صريحة في كذِب قوم ادعوا المعرفة والوصول وفضّلوا السماع على القرآن، واحتجوا برواية مختلقة على أبي بكر رضي الله عنه.

ويزيد الطينُ بلة حين يصرح الغزالي بأن القرآن مناسب للخلق جميعهم إلا للذاهب إلى الله:

● «إعلم أن قراءة القرآن أفضل للخلق كلهم إلا للذاهب إلى الله عز وجل؛ فما دام العبد مفتقراً إلى تهذيب الأخلاق وتحصيل المعارف فالقرآن أولى به، فإن جاوز ذلك واستولى الذكر على قلبه بحيث يُرتجى له أن يُفضي به ذلك إلى الإستغراق، فمداومة الذكر أولى به، فإن القرآن يجاذب خاطره ويسرح به في الجنة، والمريد الذاهب إلى الله تعالى لا ينبغي أن يلتفت إلى الجنة ورياضها، بل ينبغي أن يجعل همه هماً واحداً، وذكره ذكراً واحداً حتى يدرك الفناء والإستغراق به، إذ لباب القرآن معرفة المتكلم بالقرآن (أي الله) ومعرفة جماله والإستغراق به، والقرآن سائق إليه

---

(١) أخرجه البخاري ١/١٦٢ و ١٦٥ و ١٦٧، كتاب الأذان.

وهادٍ نحوه، ومن أشرف على المقصد لم يلتفت إلى الطريق»[1].

فالقرآن والحديث عنده شغل شاغل وعائق عن تحصيل المطلوب، لذا أوصى المريد إذا أراد الخلوة أن لا يقرن همه بقراءة قرآن ولا كتابة حديث ولا بالتأمل في تفسير[2].

(الوجه الثالث): أن لوزن الكلام بذوق الشعر تأثيراً في النفس **فليس الصوت الموزون الطيب كالصوت الطيب الذي ليس بموزون، وإنما يوجد الوزن في الشعر دون الآيات**. . . فالوزن إذن مؤثر فلذلك طاب الشعر.

(الوجه الرابع): أن الشعر الموزون يختلف تأثيره في النفس بالألحان التي تسمى الطرق والاستانات وإنما اختلاف تلك الطرق بمد المقصور وقصر الممدود والوقف في أثناء الكلمات والقطع والوصل في بعضها. وهذا التصرف جائز في الشعر، ولا يجوز في القرآن إلا التلاوة كما أنزل. . . وإذا رُتِّل القرآن كما أنزل سقط عنه الأثر الذي سببه وزن الألحان[3] وهو سبب مستقل بالتأثير وإن

---

(١) الأربعين ٤٦.

(٢) الإحياء ٣/١٩.

(٣) قارن هذا بقول الله تعالى: ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾ وقوله =

لم يكن مفهوماً كما في الأوتار والمزمار والشاهين وسائر الأصوات التي لا تفهم[1].

(الوجه الخامس): أن الألحان الموزونة تعضّد وتؤكّد بإيقاعات وأصوات أخر موزونة خارج الحلق كالضرب بالقضيب والدف وغيره لأن الوجد ضعيف لا يستثار إلا بسبب قوي، وإنما يقوى بمجموع هذه الأسباب ولكل واحد منها حظ في التأثير. وواجب أن يصان القرآن عن مثل هذه القرائن لأن صورتها عند عامة الخلق صورة اللهو واللعب، والقرآن جدٌّ كله عند كافة الخلق. فلا يجوز أن يمزج بالحق المحض ما هو لهوٌ عند العامة **وصورته صورة اللهو عند الخاصة وإن كانوا لا ينظرون إليها من حيث أنها لهو**»[2].

= تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾. يظهر لك مباينة هذا الفكر للوحي والشرع.

(١) وهذه شهادة من أشهر رواد التصوف على أن المتصوّفة يتأثرون بأصوات المعازف دون الذكر.

(٢) أي أنها ليست لهواً ولعباً عند الخواص وإن كان ظاهرها يوهم ذلك عند عوام الخلق. وبمثل هذا ضلّ الخواصّ (المتصوّفة) [يرون اللهو ذكراً ويفضّلون تأثيره على القرآن].

(الوجه السادس): أن المغني قد يغني ببيت لا يوافق حال السامع فيكرهه وينهاه عنه ويستدعي غيره، فليس كل كلام موافقاً لكل حال. فلو اجتمعوا في الدعوات على القارىء فربما يقرأ آية لا توافق حالهم إذ القرآن شفاء للناس كلهم على اختلاف الأحوال.. فإذاً، **لا يُؤمَنُ أن لا يوافق المقروء الحال وتكرهه النفس فيتعرض به لخطر كراهية كلام الله تعالى من حيث لا يجد سبيلاً إلى دفعه. فيجب توقير كلام الله وصيانته عن ذلك، وهذا ما ينقدح في علل انصراف الشيوخ إلى سماع الغناء عن سماع القرآن**»[1].

(الوجه السابع): وهذا الوجه ذكره أبو نصر السراج الطوسي في الإعتذار عن ذلك فقال: «**القرآن كلام الله وصفة من صفاته وهو حق لا تطيقه البشرية، لأنه غير مخلوق فلا تطيقه الصفات المخلوقة**[2].. والألحان الطيبة مناسبة للطباع ونسبتها نسبة الحظوظ لا نسبة الحقوق.. فما دامت البشرية باقية ونحن

(١) هذا ما تسوّله النفس والهوى ويوسوس به الشيطان.

(٢) [ولكن كلام الله تعالى يخالف ما قاله السرّاج الطوسي والغزالي الطوسي: ﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر﴾، ﴿كل في كتاب مبين﴾، ﴿وهذا لسان عربي مبين﴾].

بصفاتنا وحظوظنا نتنعم بالنغمات الشجية والأصوات الطيبة فانبساطنا إلى القصائد أولى من انبساطنا إلى كلام الله تعالى الذي هو صفته وكلامه الذي منه بدأ وإليه يعود»[1].

وقد ردّ ابن القيم رحمه الله رداً قوياً على مثل هذه التعليلات الرديئة التي اجترأ بها المتصوفة على القول بتفضيل السماع على القرآن فقال:

«وهل هذا إلا بمنزلة من استدل على إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة؟ وهل أصوات المعازف التي ثبت تحريمها من كلام نبي هذه الأمة تُستحَلّ بدعوى حصول اللذة بسماعها؟ أولم يكفهم أن سمّاه أبو بكر رضي الله عنه: مزمور الشيطان»؟

أي إسلام هذا وأي إيمان ونور وهدى يحصل باستماع أبيات [من الشعر] مصحوبة بمزامير الشيطان كما وصفها أبو بكر رضي الله عنه وكيف يسوِّغ المرء لنفسه أن يفضل هذا السماع على كتاب الله؟ إن رجلاً هذه حالته هو رجل منكوس ممكور به، لم ير في آيات الله ما يحرك قلبه القاسي فأعرض عنه وأقبل على بضاعة الشيطان.

---

(١) الإحياء ٢/ ٣٠٠-٣٠١.

قال ابن القيم رحمه الله :

تُلي الكتابُ فأطرقُوا، لا خيفةً
لكنَّه إطراق ساهٍ لاهي

وأتى الغناءُ فكالذباب تراقصوا
والله ما رقصوا من أجل اللهِ

ثقل الكتاب عليهمُ لمَّا رأوا
تَقْييده بأوامرٍ ونواهي

وعليهم خفَّ الغنا لمَّا رأوا
إطلاقه في اللهو دون مناهي

ورأوه أعظم قاطعٍ للنَّفس عن
شهواتِها، يا ويحها المتناهي

وأتى السَّماع موافقاً أغراضها
فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه

أين المساعد للهوى من قاطعٍ
أسبابه عند الجهول الساهي

إن لم يكن خمر الجسوم فإنه
خمر العقول مماثل ومضاهي

فـانظـر إلـى النشـوان عنـد شـرابـه
وانظـر إلـى النشـوان عنـد تـلاهـي
وانظـر إلـى تمـزيـق ذا أثـوابـه
مـن بعـد تمـزيـق الفـؤاد الـلاهـي
واحكـم بـأي الخمـرتيـن أحـق بـالـ
تحـريـم والتـأثيـم عنـد اللهِ[1]

ولقد أورد الغزالي القصة التالية دليلاً على أن الغناء أشد تأثيراً في الوجدان من القرآن:

«وقد حُكي عن أبي الحسن الدراج أنه قال قصدت يوسف بن الحسين الرازي من بغداد للزيارة والسلام عليه فلما دخلت «الرّيّ» كنت أسأل عنه، فكل من سألته عنه قال: إيش تعمل بذلك الزنديق؟ قال أبو الحسن: فلم أزل أسأل عنه حتى دخلت عليه في مسجد وهو قاعد في المحراب وبين يديه رجل وبيده مصحف يقرأ، فإذا هو شيخ بهي حسن الوجه واللحية، فسلمت عليه فأقبل عليّ وقال لي: أتحسن أن تقول شيئاً؟ فقلت: نعم.

(١) انظر مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ١/ ٤٨٦-٤٨٨ ط. دار الفكر.

قال: هات! فأنشأت أقول:

رأيتُــك تبنــي دائمــاً فــي قطيعتــي
ولــو كنــت ذا حــزمٍ لهــدّمــت مــا تبنــي
كــأنــي بكــم والليــتُ أفضــل قــولكــم
ألا ليتنــا كنــا إذ الليــت لا يُغنــي

فأطبق المصحف ولم يزل يبكي حتى ابتلت لحيته، وابتلّ ثوبه حتى رحمته من كثرة بكائه، ثم قال: يا بنيّ تلوم أهل الرّيّ يقولون: يوسف زنديق! هذا أنا من صلاة الغداة، أقرأ المصحف لم تقطر من عيني قطرة، وقد قامت القيامة عليّ لهذين البيتين؟».

علّق الغزالي على هذه القصة بقوله: «فإذن.. القلوب وإن كانت محترقة في حب الله تعالى، فإن البيت الغريب يهيج منها ما لا تهيج تلاوة القرآن»[1].

(١) الإحياء ٢/٣٠١. ولعله نقل هذه القصة عن الرسالة القشيرية ١٥٦، [وهي من أهم مراجع التصوف المبتدع].

الفصل الثالث

رأي الغزالي في الذكر الغنائي

ليس من الغريب بعد أن ظهر رأي الغزالي في السماع الصوفي وتأثيره على قلب السامع أكثر من ترتيل القرآن أن يعلن إباحته له بما يشتمل عليه من غناء ورقص، ويبرز للرد على القائلين بحرمته:

● روى الغزالي عن ممشاد الدينوري قوله: «رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت له: يا رسول الله ﷺ هل تنكر من هذا السماع شيئاً؟ فقال: ما أنكر منه شيئاً، ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ويختمون بعده بالقرآن»[1].

ورد الغزالي على حجج القائلين بتحريمه بقوله:

---

(١) الإحياء ٢/ ٢٧٠. وهكذا فالمتصوّفة لا يرجعون إلى ما ثبت في القرآن والصّحاح لمعرفة الحلال والحرام وإنما يعتمدون الرؤى والخيالات.

● «واحتجوا بقول ابن مسعود رضي الله عنه: (الغناء ينبت النفاق في القلب).. فنقول: قول ابن مسعود رضي الله عنه (ينبت النفاق) أراد به في حق المغنِّي، فإنه في حقه ينبت النفاق، إذ غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره ويروّج صوته عليه ولا يزال ينافق ويتودد إلى الناس ليرغبوا في غنائه.. فهذا النفاق من المباحات»![1].

[عرفنا من علوم الشريعة تقسيم النفاق إلى قسمين: اعتقادي وعملي. وكلاهما حرام. أما النفاق المباح فمن اختراع الفكر، ولا أثر له في الكتاب ولا في السنة ولا في أقوال الأئمة في القرون المفضلة].

● قال الغزالي: «واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾ قال ابن مسعود والحسن البصري والنخعي رضي الله عنهم: إن لهو الحديث هو الغناء». ثم قال الغزالي: «أما شراء لهو الحديث بالدين استبدالاً به ليضل عن سبيل الله فهو حرام مذموم.. وليس كل غناء بدلاً عن الدين مشترى به ومضلاً عن سبيل الله تعالى، ولو قرأ القرآن ليضلّ

(١) الإحياء ٢/٢٨٦.

به عن سبيل الله لكان حراماً»[1].

[متى كان القرآن وسيلة للضّلال يا أرباب التصوف]؟.

● قال: «واحتجوا بما روته عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى حرّم القينة[2] وبيعها وثمنها وتعليمها».

فتأول الغزالي هذا الحديث على أن المراد بالقينة: الجارية التي تغني للرجال في مجلس الشرب. ثم قال: «فأما غناء الجارية لمالكها فلا يُفهم تحريمه من هذا الحديث، بل لغير مالكها سماعها عند عدم الفتنة»[3].

قلت: وأي فتنة أعظم من غناء امرأة بين يدي الرجال؟ أليس غناء المرأة أشد على ضعاف القلوب من مجرد الخضوع بالقول المنهي عنه في كتاب الله تعالى؟.

● والغزالي لم يحرّم الغناء حتى لو اشتمل على أوصاف النساء، فإنه هو القائل: «فأما النسيب وهو التّشبيب بوصف

---

(١) الإحياء ٢/ ٢٨٥.
(٢) المغنيّة المسترقّه.
(٣) الإحياء ٢/ ٢٨٤-٢٨٥.

الخدود والأصداغ وحسن القدّ والقامة وسائر أوصاف النساء فهذا فيه نظر، والصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن»!![1].

آداب الغناء والرقص عند الذكر

● قال الغزالي: «الأدب الخامس في السماع: موافقة القوم في القيام إذا قام واحد منهم في وَجْدٍ صادق من غير رياء وتكلف.. وكذلك إن جرت عادة طائفة بتنحية العمامة على موافقة صاحب الوجد إذا سقطت عمامته أو خلع الثياب إذا سقط عنه الثوب بالتمزيق، فالموافقة في هذه الأمور من حسن الصحبة والمعاشرة»!![2].

● ثم قال: «ومن الأدب أن لا يقوم للرقص مع القوم إن كان يُستثقل رقصه، ولا يشوّش عليهم أحوالهم، إذ الرقص من غير إظهار التواجد مباح»!![3].

---

(١) الإحياء ٢/ ٢٨٢.

(٢) الإحياء ٢/ ٣٠٥.

(٣) الإحياء ٢/ ٣٠٥ وكيف يكون من غير تواجد والغزالي قد أجاز تمزيق الثياب على شكل مربعات.

تلك هي آداب الصوفية وأحوالهم في ذكر الله: رقص وتواجد وتمايل وتصفيق وغناء.. وإن شئت فقل: مكاء وتصديه.

وهكذا كان ذكر كفار قريش عند البيت صخب ورقص وترك للثياب إلى حدّ الطواف حول البيت عراة.

قال الله تعالى مظهراً أحوالهم: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية﴾ [الأنفال: ٣٥] قال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت عراةً تصفّر وتصفق[1]. والمكاء الصفير، والتصدية التصفيق. والتصفيق عند الصوفية من جملة الآداب التي يؤدونها في خلواتهم، وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله شيئاً من ذلك فقال: وقد كان ابن بنان يتواجد وكان أبو سعيد الخراز يصفق له»[2].

فأي دين هذا الذي يدعو إليه الغزالي؟... أيكون الرقص والتصفيق والغناء ووصف محاسن النساء وتمزيق الثياب ذكراً لله واتباعاً لهدى رسول الله ﷺ [وتقرباً إليه؟] ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ [الشورى: ٢١].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٠٦.
(٢) تلبيس إبليس ٢٥٨.

الفصل الرابع

رأي الغزالي في الجنة وأهلها

يرى الغزالي أن للعارفين مقاماً يجاوز مقام الجنة إلى مجالسة الرحمن الدائمة، وهذا المقام لا يناله عموم الناس، وإنما هو لخواصهم من العارفين.

واعتمد بذلك على حديث ضعيف لا تقوم به حجة:

«أكثر أهل الجنة البله. وعلّيّون لذوي الألباب»[1].

قال الغزالي:

«فمن كان حبه في الدنيا رجاء نعيم الجنة والحور العين، مُكِّن من الجنة ليتبوّأ منها حيث يشاء، فيلعب مع الولدان، ويتمتّع بالنسوان. فهناك تنتهي لذته في الآخرة.. فالأبرار يرتعون في

---

(١) قال الحافظ العراقي: أخرجه البزار بسند ضعيف (على حاشية الإحياء ٤/ ٣٣٥). وانظر ضعيف الجامع الصغير وزيادته رقم (١١٩٤).

البساتين، ويتنعمون في الجنان مع الحور العين والولدان.

والمقربون ملازمون للحضرة، عاكفون بطرفهم عليها، يستحقرون نعيم الجنان.

فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون، وللمجالسة أقوام آخرون، ولذلك قال رسول الله ﷺ أكثر أهل الجنة البُلْه»[1].

[وهذا مخالف لمحكم كتاب الله في وصف نعيم المقربين في سورة الواقعة آية ١١ حتى آية ٢٦][2].

● وقال: «وأغلب البواعث باعث البطن والفرج وموضع قضاء وطرهما الجنة. فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه -كالأجير السوء- ودرجته البله. وأما عبادة ذوي الألباب فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حباً لجماله وجلاله. وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم في الجنة. فإنهم لم يقصدوها. بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه.. ويسخرون ممن يلتفت إلى الحور العين...

بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من

---

(١) الإحياء ٤/ ٣٣٥.

(٢) وانظر ص١٧ و١٨ من هذه الرسالة.

مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبتها وإلفها لها، وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء.

فعمى أكثر القلوب عن إبصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء بأنها لا تشعر به أصلاً ولا تلتفت إليه»!![1].

[وهو بهذا يقتفي أثر حديث الخرافة عن رابعة العدوية التي تذكر التواريخ والقصص أنها غانية تحولت إلى عابدة، ولم يتهمها أحد بالعلم ليعذر في اتباعها دراويش المتصوفة فضلاً عن علمائهم.

ولو صدر ما نسب إليها عن عالم بشرع الله لكان ساقطاً لمخالفته نصوص كتاب الله وسنة نبيه ﷺ في الترغيب في ملذات الجنة والترهيب من عذاب النار، ووصف ما أعدّ الله في الأولى من نعيمه لأوليائه، وفي الثانية من جحيم لأعدائه... والأمر بالدعاء (وهو العبادة) خوفاً من الجحيم وطمعاً في النعيم. قال الله تعالى: ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ [الأعراف: ٥٦].

---

(١) الإحياء ٤/ ٣٧٥.

وهكذا تصبح الجنة عند الغزالي -والصوفية- متاعاً يدعون إلى الزهد فيه تماماً كدعوتهم إلى الزهد في القرآن والحديث للذاهب إلى الله].

● واسمع ما يرويه لك الغزالي بعد ذلك عن آراء وحكايات الصوفية وازدرائهم الجنة: يقول:

«وحكي عن ممشاد الدينوري قوله: منذ ثلاثين سنة تُعرض عليّ الجنة بما فيها، فما أعرتُها طرفي»[1].

«وروي عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: إلهي، إنك تعلم أن الجنّة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وآنستني من ذكرك»[2].

«وقيل لرابعة العدوية: ألا تسألين الله الجنة؟ فقالت: الجار ثم الدار»[3].

«وروي عن بعضهم قوله: من عبَدالله لعوضٍ فهو لئيم»[4].

---

(١) الإحياء ٤/ ٤٨٣.
(٢) الإحياء ٤/ ٣٦٠.
(٣) ميزان العمل ٦٨.
(٤) ميزان العمل ٦٨.

«وقال الشبلي: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود، ذكري للذاكرين، وجنتي للمطيعين، وزيارتي للمشتاقين»[1].

وقد استجرهم الشيطان إلى الشطط والشطح، وصرفهم عن طلب أعظم ما وعد الله به عباده بدعوى المحبة الإلهية والإخلاص في التعبد والتجرد في طلب الفناء في الله عن أي شيء آخر، وظنوا أن طلب الجنة مناف للاخلاص ومضاد للمحبة.

وهؤلاء قد اختلت موازين العبادة عندهم باختلال ميزان الرجاء والخوف، [فأظهروا التهاون بالنعيم والعذاب وبالتالي بنصوص الكتاب والسنة الدالة عليهما:

يروون عن أبي يزيد البسطامي قوله]:

«. . ما النار؟ لأستنِدَنَّ إليها غداً، وأقول: اجعلني فداء لأهلها وإلا بلعتُها. ما الجنة؟ لعبة صبيان، ومراد أهل الدنيا»[2]. [ولكن الله تعالى يقول: ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ [ق: ٤٥].

بيد أن البسطامي لا يكتفي بازدراء الجنة والنار فحسب وإنما

---

(١) الإحياء ٤/٣٦١.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/٨٨ للإمام الذهبي بتحقيق الأرنؤوط وميزان الاعتدال ٢/٣٤٦.

يزدري كل ما خلقه الله في السموات والأرض. فإنه لما سأله أحدهم أن يحدثه بشيء من كراماته قال له:

«أدخلني [الله] في الفلك الأسفل، فدوّرني في الملكوت السفلي، وأراني الأرضين وما تحتها من الثرى، ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوّف بي في السموات، وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش وأوقفني بين يديه فقال: سلني أي شيء رأيته حتى أهبه لك؟ فقلت: يا سيدي، ما رأيت شيئاً أستحسنه فأسألك إياه»[1].

وفي فصوص ٱبن عربي قوله:

وإن دخلــوا دار الشقــاء فــإنهــم
علــى لــذة فيهــا نعيــم مبــايــن
نعيـم جنـان الخلـد فـالأمـر واحـد
وبينهمــا عنــد التجلــي تبــايــن
يسمـى عـذابـاً مـن عـذوبـة لفظـه
وذاك لـه كـالقشـر والقشـر صـايـن[2]

---

(١) الإحياء ٤/٣٥٦.

(٢) فصوص الحكم ٩٤ ط، دار الكتاب العربي.

وقد جعل «ريح العذاب» بمعنى الراحة والعذوبة في تفسيره قوله الله تعالى: ﴿بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم﴾ [الأحقاف: ٢٤]: «الريح ههنا إشارة إلى ما فيها من الراحة فإن بهذه الريح أراحهم من هذه الهياكل المظلمة.. وفي هذه الريح عذاب: أي أمر يستعذبونه إذا ذاقوه»[١].

ورووا عن الحلاج قبله:

أريـــــدك لا أريـــــدك للثـــــواب
ولكنـــــي أريـــــدك للعقـــــاب[٢]

فاستجاب الله له فمات مصلوباً، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

وغالب هذه الشطحات [كان سببها انصرافهم عن العلم الشرعي من القرآن والحديث وفقه أئمة المؤمنين إلى اتباع الهوى واتخاذ مشايخهم أرباباً من دون الله].

أقوالهم في الرجاء والخوف

● يذكر الغزالي عدداً من أقوال الصوفية وآرائهم في عاملي

(١) فصوص الحكم ١٠٩.
(٢) تاريخ بغداد ٨/ ١١٦. ط دار الكتب العلمية.

الرجاء والخوف. نبدؤها بقول الغزالي نفسه. يقول:

«فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالاضافة إلى الحظوظ العاجلة، وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج»[1]

ثم ينقل قول رابعة العدوية لسفيان الثوري:

«ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً في جنته فأكون كالأجير السوء. بل عبدته حباً له، وشوقاً إليه»[2].

وعن أبي سليمان الداراني قوله:

«إن لله عباداً ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة»[3].

ويحكي الغزالي أن عيسى عليه السلام مرّ بطائفةٍ من العبّاد -وقد تخلّوا للعبادة- وقالوا: نخاف النار ونرجو الجنة. فقال: مخلوقاً خفتم ومخلوقاً رجوتم.

---

(١) الإحياء ٤/ ٣٨١.
(٢) الإحياء ٤/ ٣١٠.
(٣) الإحياء ٣/ ٣١٠.

ومرّ بقوم آخرين كذلك فقالوا:

نعبده حباً له وتعظيماً لجلاله. فقال: أنتم أولياء حقاً، ومعكم أُمرت أن أقيم»[1].

وكيف يكون معظماً لله من يسمع قوله تعالى: ﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾ ترهيباً، وقوله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنةٍ عرضها السمٰوات والأرض أعدت للمتقين﴾ ترغيباً؛ فلا يبالي بما يخوف الله منه، ولا يشتهي ما يرغّب فيه؟.

أيعتقد أنه أحب إلى الله وأقرب عنده من أنبياء الله الذين أثنى الله عليهم بقوله: ﴿ويدعوننا رغباً ورهباً﴾ [الأنبياء: ٩٠] ومن ملائكته الذين قال فيهم: ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾؟ [النحل: ٥٠].

أليس التعظيم -كل التعظيم- والتقوى- كل التقوى- أن تخاف مما قد خوّفك الله منه، وترغب فيما رغبك الله فيه؟.

أما سمعت قوله تعالى: ﴿ذلك يخوّف الله به عباده يا عباد

---

(١) الأربعين في أصول الدين ١٩٢

فاتقون﴾ [الزمر: ١٦].

أما علمت أن عدم الخوف مما خوّف الله منه هو من صفات أهل الطغيان كما قال تعالى: ﴿ونخوّفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ [الإسراء: ٦٠].

والصوفية أصابهم شيء من هذا الطغيان بانحرافهم عن السنة فاستخفُّوا بما عند الله من الثواب والعقاب، وظنوا أن الخوف من النار والعذاب خوف من غير الله، وانه شرك في التوحيد ونسوا أمر الله تعالى: ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ [الأعراف: ٥٦].

فصار عندهم عدم سؤال الله الجنة أو الاستعاذة من النار من مقام الرضا بالله. واسمع ما يقوله القشيري -وهو مرجع الصوفية وواضع أصولها- فيما يرويه عن أبي سليمان الداراني من قوله:

«الرضا أن لا تسأل الله تعالى الجنة ولا تستعيذ به من النار»[1].

● يقول أبو حامد الغزالي:

---

(١) الرسالة القشيرية ٩٠.

«فمقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فهو قرة العين التي لا تعلم نفس ما أُخفي لهم منها. وإذا حصلت: انمحقت الهموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقاً بنعيمها.

فلو أُلقي في النار لم يحس بها لاستغراقه.

ولو عُرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه، لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية»[1].

فأي غرور وأي تبجح هذا الذي حصل للصوفية؟ وأي خروج عن منهج رسول الله ﷺ وقد قال الله فيه: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

إن احتقار الصوفية ما كان يطلبه الأنبياء ويدعون إليه ليدل على أنها ليست منقذة من الضلال وإنما هي موقعة فيه.

الرجاء والخوف للعامة لا الخاصة

ولكن هل معنى ما ذكرته أن الغزالي ينكر الخوف والرجاء ويدعو كل الخلائق إلى عبادة الله بالمحبة المجردة من الخوف

---

(١) الإحياء ٤/ ٣١١.

والرجاء؟.

الجواب: لا، وإنما يدعو الخواص إلى ذلك فقط، [الخواص الذين يقدّمون الغناء على القرآن والحديث].

أما العوام فإنه يدعو إلى تخويفهم من النار وترغيبهم بالجنة وبثواب الله، لأن ذلك أصلح لهم، ولأنهم أقرب دائماً إلى التكاسل وإلى الإهمال.

وقد جعل الخوف على نوعين:

الأول: خوف من عقاب الله، وهذا خوف عموم الخلق.

الثاني: خوف من الحجاب عن الله ورجاء القرب منه، وهذا المقام أعلى[1].

وقسّم الطالبين إلى ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: من يرغب في ثوابه الموصوف له في الجنة، أو عقابه الموعود له في النار. وهذه الرتبة للعامة وهم الأكثرون.

المرتبة الثانية: رجاء حمد الله ومخافة ذمه -أي حمداً وذماً في

---

(١) الإحياء ٤/١٦٨.

الحال من جهة الشرع -وهذه منزلة الصالحين وهي أقل من الأولى بكثير.

المرتبة الثالثة: وهي مرتبة من لا يبغي إلا التقرب إلى الله تعالى، وطلب مرضاته، وابتغاء وجهه، والالتحاق بزمرة المقّربين إليه زلفى من ملائكته، وهي درجة الصديقين والنبيّين ولذلك قال تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ [الكهف: ٢٨][١].

يضيف العزالي قائلاً:

«ولما كان العقل الضعيف لا يقف على كنه هذا المعنى -وأكثر العقول ضعيفة- خلق الله الجنة والنار، ووعد الخلق بهما: زجراً، وحثاً، وأطنب في وصفهما».

«ولم يتعرض لهذه المعاني إلا بالمرامز، مثل قوله تعالى: ﴿يريدون وجهه﴾ و «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[٢].

---

(١) ميزان العمل ٦٨.

(٢) ميزان العمل ٦٨-٦٩.

أقول: هذه المرامز شديدة الشبه بمرامز الباطنية، وفيها تلاعب بالمراد الحقيقي من هذه الآية ﴿يريدون وجهه﴾ وإلا فالذين نزلت فيهم هذه الآية هم الصحابة ومن اقتفى أثرهم، وعدهم الله بالجنة وحثهم على طلبها بالجهاد في سبيله قائلاً: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ [التوبة: ١١١] وقد قالوا: عند نزول هذه الآية: «ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل».

قال الحسن البصري وقتادة رحمهما الله:

«بايعهم الله وأغلى الثمن»[١]. لذا كانت الجنة عند قوم غالية عزيزة كالصحابة، وعند آخرين: لا تساوي جناح بعوضة (كما روى الغزالي ذلك عن إبراهيم بن أدهم) وهؤلاء هم الصوفية.

[وكتاب الله لم يصفه الله بالمرامز بل وصفه الله بقوله: ﴿كتاب مبين﴾ واضح لطلاب العلم الشرعي النقي من فلسفة اليونان والهند وسفسطة الباطنيّة، كما وصف الله سنة نبيّه ﷺ بالوصف نفسه: ﴿لتبيّن للناس ما نزّل إليهم﴾ ونشهد أنه قد بيّن ولم يترك مجالاً لدعوى المرامز].

---

(١) انظر في هذه الجملة والتي قبلها: تفسير ابن كثير ٢/ ٣٩١.

الفصل الخامس

روايات الغزالي عن مشايخ المتصوفة

من ذلك قوله:

● «وحكي أن أبا تراب النخشبي كان معجباً ببعض المريدين، فكان يدنيه منه ويقوم بمصالحه. فقال له أبو تراب يوماً:

لو رأيت أبا يزيد. فقال له المريد:

ويحك! ما أصنع بأبي زيد؟ قد رأيت الله تعالى فأغناني عن أبي يزيد!.

قال أبو تراب: فهاج طبعي ولم أملك نفسي، فقلت:

ويلك! تغتر بالله عز وجل؟!. لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة»[1]. وهذا الكلام القبيح لا يحتاج إلى تعليق [إلا أن نعوذ بالله من الزيغ بعد الهدى].

---

(١) الإحياء ٤/ ٣٥٦ باب حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم؟

لكن الغزالي يُقرّ هذا الكلام وغيره من حكايات الصوفية بقوله:

«فهذه أوائل سلوكهم وأقلّ مقاماتهم، وهي أعزّ موجود في الاتقياء من الناس»![1]. وقد أورد هذا الثناء عليهم وعلى سلوكهم بعد أن ذكر هذه القصة وغيرها من القصص التي سأنقلها عنه مثل:

● حكى الغزالي عن أبي سليمان الداراني قوله:

«إذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر في طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا»[2].

● وحكى عن رابعة العدوية قولها لسفيان الثوري: «نِعْم الرجل أنت لولا رغبتك في الدنيا. قال: وفيماذا رغبت؟! قالت: في الحديث»[3].

● وسبق أن بيّن الغزالي ما يجب وما لا يجب عمله في الخلوة

---

(١) الإحياء ٤/ ٣٥٧.
(٢) الإحياء ١/ ٦١ و٢/ ٢٤، ٢٣٧.
(٣) الإحياء ٢/ ٢٣٧.

بأن قال:

«ثم يخلو بنفسه في زاوية، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب. ويجلس فارغ القلب مجموع الهمّ. ولا يفرّق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا يكتب حديثاً ولا غيره»[1].

إذن، فكتابة الحديث من المشاغل والعوائق، بل ومن علامات الركون إلى الدنيا، فمن أي مشكاة يخرج لنا المتصوفة هذا الضلال؟.

● وحكى الغزالي عن أبن الكريبي أنه قال:

«نزلتُ في محلة فعُرفت فيها بالصلاح، فتشتت عليّ قلبي.

فدخلت الحمّام وعدلت إلى ثياب فاخرة، فسرقتها ولبستها، ثم لبست مرقعتي فوقها وخرجت. وجعلت أمشي قليلاً قليلاً، فلحقوني، فنزعوا مرقعتي وأخذوا الثياب وصفعوني وأوجعوني ضرباً، فصرتُ بعد ذلك أعرفُ بلصّ الحمام، فسكنت نفسي»[2].

وهذا مخالف لشرع الله وسنة نبيه ﷺ؛ فإن السرقة كبيرة من

---

(١) الإحياء ٣/١٩.

(٢) الإحياء ٤/٣٥٨.

الكبائر مقرونة بالزنى فيما حرمه الله على المؤمنين والمؤمنات: ﴿ولا يسرقن ولا يزنين﴾، ودفْع سوء الظن من الهدي النبوي الشريف. فعن الزهري قال: أخبرني علي بن الحسين رضي الله عنهما: أن صفية زوج النبي ﷺ أخبرته: أنها جاءت رسول الله ﷺ تزوره في اعتكافه في المسجد، في العشر الأواخر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت تنقلب، فقام النبيّ ﷺ معها يقلبها، حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة مر رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله ﷺ فقال لهما النبي ﷺ: «على رسلكما، إنها صفية بنت حييّ» فقالا: سبحان الله يا رسول الله وكَبُرَ عليهما فقال النبي ﷺ: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يَقْذِف في قلوبكما شراً» أو قال: «شيئاً» متفق عليه.

● ومنها ما رواه الغزالي عن أبي سعيد الخراز أنه قال:

«دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيراً عليه خرقتان، فقلت في نفسي: هذا وأشباهه كَلّ على الناس.

فناداني وقال: ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾.

فاستغفرت الله في سري فناداني وقال: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾، ثم غاب عني ولم أره»[1].

---

(١) الإحياء٣/ ٢٥. ولعل الغزالي نقلهاعن الرسالة القشيرية =

وتسخير الآيات التي تثبت صفات الكمال لله عز وجل، وحده، لإثبات عين ذلك للبشر أمر عظيم وكبيرة من الكبائر.

والعلم بما في الصدور الذي خصّ الله به نفسه من مقتضيات الكشف عند الصوفية ومنهم الغزالي، وهو من لوازم المعرفة الصوفية. ولو أنك فتحت كتاباً من كتب الصوفية فلا بد وأن تقرأ فيه مثل هذه العبارة: «فكوشف رضي الله عنه بما في خاطره». والغزالي يصدّق هذا الرأي الصوفي ويؤيده. فمن كلامه:

«وما حُكي من تفرّس المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر»[1].

«ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أُخرى، يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل»[2].

«فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم.. حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ولكن بتشاهد

= ص١٠٨.

(١) الإحياء ٣/ ٢٥.

(٢) المنقذ من الضلال ٥٣.

القلوب، وتناجي الأسرار»[١].

● ونقل الغزالي عن بعض العارفين قولهم:

«للربوبية سرٌّ لو أُظهر لبطلت النبوة.

وللنبوّة سر لو كُشف لبطل العلم.

وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام»[٢].

وحكى أيضاً عن سهلٍ قوله: «إفشاء سر الربوبية كفر»[٣].

وقد أورد هذه الجملة في كتاب الإملاء في إشكالات الإحياء حيث كانت مما أُنكر عليه، واعتبرها هو من جملة ما أشكل عليهم فهمه لقصور أفهامهم ومداركهم. لكنه زاد بشرحها الإشكال إشكالاً، ولا عجب، فعبارات المتصوّفة لا يصلح معها تأويل ولا ترقيع.

● قال أبو حامد:

«وروي أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً، فدخلت عليه امرأة، فسألته نفسه، فامتنع عليها وخرج هارباً من منزله وتركها فيه.

---

(١) الإحياء ٤/٢١٦.

(٢) الإحياء ١/١٠٠.

(٣) الإحياء ٤/٢٤٦.

قال سليمان: فرأيت تلك الليلة في المنام يوسف عليه السلام وكأني أقول له: أنت يوسف؟.

قال: نعم، أنا يوسف الذي هممت وأنت سليمان الذي لم تهمّ[1].

قال الغزالي: أشار إلى قوله تعالى: ﴿ولقد همّت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾ [يوسف: ٢٤].

فأحوال الصوفية مخالفة للعقل والنقل، ولهذا أخرجوها عن هذين الأصلين.

والنقل مناط الأمر والنهي -وهما التكليف- والعقل هو المكلّف. ولا يخرج عن ذلك إلاّ البهائم أو المجانين أو الضالّون.

إن اشتمال كتب الغزالي رحمه الله على مثل هذه الخرافات يؤيد صحة ما ذهب إليه أئمة كثيرون من أنه حريٌّ أن لا يوثق بكل ما كتبه، وأن يُظن فيه التساهل والمخالفة للشريعة، [والانحراف عن منهاج النبوة].

---

(١) الإحياء ٣/ ١٠٥.

الفصل السادس

[إنكار علماء عصره عليه وإصراره]

لم تطب نفس الغزالي بهذا النقد والإنكار الذي وجهه العلماء على الإحياء ولم يتقبل هذا النقد بصدر رحب، بل هب مندفعاً يرمي منكريه بالزيغ والضلال وأنهم شركاء الطغام وأمثال الأنعام وأجماع العوام وسفهاء الأحلام، وأن غايتهم الدنيا، وأنهم تآلفوا على المنكر وتصافوا على الخديعة والمكر.

وهذا يقدح في صحة دعواه تصفية القلب من الكدورات وترويض النفس على التذلل والمصابرة.

فقد طلب إليه أحد تلامذته تعليلاً لهذه الإشكالات التي في الإحياء والتي دعت علماء في عصره للإنكار عليه فأجابه قائلاً:

«سألت -يسّرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها، وقرب لك مقامات الولاية تحل معاليها- عن بعض ما وقع في الإملاء الملقب بالإحياء مما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه،

ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه، وأظهرت التحزن لما شاش به شركاء الطغام، وأمثال الأنعام، واجماع العوام وسفهاء الأحلام وذعار أهل الإسلام، حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ومطالعته، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصرة باطراحه ومنابذته، ونسبوا ممليه إلى ضلال وإضلال، ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيغ في الشريعة واختلال، فإلى الله انصرافهم ومآبهم، وعليه في العرض الأكبر إيقافهم وحسابهم. ﴿فستكتب شهادتهم ويُسئلون﴾، ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾، ﴿بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾، ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أُولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منم﴾، ﴿وإنّ الظالمين لفي شقاق بعيد﴾. ولا عجب فقد ثوى أدلّاء الطريق، وذهب أرباب التحقيق ولم يبق في الغالب إلا أهل الزور والفسوق، متشبثين بدعاوى كاذبة، متصفين بحكايات موضوعة، متزينين بصفات منمّقة، متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة، متعاطين لحجج غير صادقة، كل ذلك لطلب الدنيا أو محبة ثناء أو مغالبة نظراء، قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر، وتآلفوا جميعاً على المنكر، وعدمت النصائح بينهم في الأمر، وتصافوا بأسرهم على الخديعة

المكر، إن نصحَتْهم العلماء أَغْرَوا بهم، وإن صمت عنهم العقلاء أزّوا عليهم، أولئك الجهال في علمهم، الفقراء في طَولهم، البخلاء على الله عز وجل بأنفسهم، لا يفلحون ولا ينجح تابعهم، ولذلك لا تظهر عليهم مواريث الصدق، ولا تسطع حولهم أنوار الولاية، ولا تخفق لديهم أعلام المعرفة، ولا يستر عوراتهم لباس الخشية حُجبوا عن الحقيقة بأربع: بالجهل والإصرار ومحبة الدنيا وإظهار الدعوى؛ فالجهل أورثهم السخف، والإصرار أورثهم التهاون ومحبة الدنيا أورثتهم طول الغفلة، وإظهار الدعوى أورثهم الكبر والإعجاب والرياء ﴿والله من ورائهم محيط﴾، ﴿وهو على كل شيء شهيد﴾ فلا يغرنك -أعاذنا الله وإياك من أحوالهم- شأنهم. ولا يذهلنك عن الاشتغال بصلاح نفسك تمردهم وطغيانهم. ولا يغوينّك بما زيَّن لهم- من سوء أعمالهم- شياطينُهم»[1].

وبهذا تعلم أن الغزالي لم يكن مستعداً بحالٍ من الأحوال للرجوع عما أشكل من كتابه، بل رمى المنكرين بأسوأ النعوت، ووصفهم بأقبح الصفات.

---

١) الإملاء في إشكالات الإحياء ٥/ ١٣. (ملحق بالإحياء).

ثم أبدى نصحه وتوجيهه إلى من يطلع على مصنف أو يقرأ كتاباً قائلاً:

«إذا عرض لك من كلام عالم إشكال يؤذن في الظاهر بمحال أو اختلال، فخذ ما ظهر لك علمه، ودع ما اعتاص عليك فهمه، وكِلِ العلم فيه إلى الله عز وجل»[1].

ولكن؛ إذا كان الكلام كفراً، أو خروجاً عن الشرع، فهل يجوز تركه وتوكيل الأمر فيه إلى الله، واعتباره من المتشابه الذي يجدر التوقف فيه؟.

أليس على المنكرين إلاّ أن يقفوا من غرائب كلامه موقف الجاهل الذي يحسن القراءة ولا يحسن فهم المعاني، وأن [لا يسألوا عن شيء حتى يحدث لهم منه ذكراً؟ وهل عصم الغزالي من الخطأ كما عصم أنبياء الله ورسله؟].

استغلال الصوفية لقصة موسى والخضر

ولو أن الامة كلها [وقفت من قول غير المعصوم وفعله موقف] موسى مع الخضر عليهما السلام- على الوجه الذي يفهمه

---

(١) الإملاء ١٨/٥.

المتصوّفة- لبطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولأصبحت هذه القصة ذريعة الزنادقة لتبديل الشرائع. كما تذرعت الباطنية بشبهة الباطن والظاهر في تحليل المحرمات وإسقاط التكاليف وإبطال الفرائض.

أما القصة فهي حق، وأما استغلال الصوفية لها فإنه استغلال حقٍ لغرضٍ باطل. وذلك لوجوه منها:

(الوجه الأول): أن موسى عليه السلام كان يعلم بوحي من الله منزلة الخضر في العلم[1]، وهذا كافٍ لأخذ ما عند الخضر بلا إنكار لقوله تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾.

(الوجه الثاني): أن ما فعله الخضر عليه السلام كان مأموراً به، ولم يفعله من عنده لقوله تعالى: ﴿وما فعلته عن أمري﴾.

(الوجه الثالث): أن موسى والخضر عليهما السلام لم يخرجا عن الشريعة والنصوص في شيء، وإنما كان موقف موسى مع الخضر كموقف المجتهد المتمسك بعموم الدليل مع صاحب النص الخاص المتمسك بالدليل الخاص، وكلاهما على الدليل

---

(١) فتح الباري ٦/ ٤٣١-٤٣٢.

يعتمد، ومن الشريعة يستقي لأن هذا مأمور وذاك مأمور.

(الوجه الرابع): أن الخضر لم يأخذ على موسى مطلق الإنكار؛ بل أخذ عليه تسرعه في الإنكار قبل أن يخبره هو بمأخذه الشرعي كما اتفقا.

(الوجه الخامس): إن إنكار موسى يستدل منه على أن الفطر السليمة -الخالصة من شوائب العبودية والتقديس لغير الحق الذي أنزله الله- لا بد وأن تنكر المنكر. وكل الناس مأمورون بذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [آل عمران: ١١٠]. ولم يُستثن من هذه الآية شيخ ولا عالم بل ولا صحابي أو تابعي. ولم نُكلّف النظر إلى بواطن ونيات وقلوب أصحاب العمل المخالف، لأنه لا يعلم ما في القلوب إلا ربها.

(الوجه السادس): لم يفسّر رسول الله ﷺ ولا أئمة الدين والعلم في القرون الثلاثة المفضلة قول الله تعالى عن الخضر **﴿وعلمناه من لدنّا علماً﴾** بمثل تلبيس المتصوفة على العوام إن من مصادر التشريع ما يسمى «العلم اللدني»، فكل علوم الشريعة من لدن الله (أي من عنده) قال الله تعالى: ﴿قد بلغت من لدني

عذراً﴾، ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

أما ما يخالف شريعة الله التي جاءت في كتابه وسنة نبيه وفقه علماء الأمة فيهما فلا شك أنها من لدن شياطين الإنس والجن. قال الله تعالى: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾.

(الوجه السابع): إذا قال الخضر لموسى عليه السلام: يا موسى، «إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه»، وصَحَّ أن يعدّ هذا خروجاً من الخضر عن شريعة موسى في هذا الباب، فإن ذلك مما لا يجوز القياس عليه في شريعة محمد ﷺ التي قال الله فيها: ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم﴾؛ فإنها باقية إلى قيام الساعة، لا تغيّر ولا تبدل ولا يجوز الخروج عنها البتة، ولذا فإن الكل ملزمون باتباعها ظاهراً وباطناً ولا حجة لمن خالفها. ولو أحيا الله الأنبياء جميعاً ما وسعهم إلا اتّباعها. قال الله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ [آل عمران: ٨٥].

[وقد بيّن الله في محكم كتابه وسنة رسوله ﷺ أن الخضر يحمل علماً من الله ويعمل بشرعه، ولم ولن يحصل ذلك لأحد من فلاسفة المتصوفة ولا دراويشهم].

توحيد الغزالي وتوحيد الحلّاج

كذلك أنكروا عليه تقسيمه التوحيد إلى أربع مراتب، وهي:

(المرتبة الأولى): أن يقول الإنسان بلسانه ﴿لا إله إلا الله﴾ وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين»[1].

ومعلوم أن النفاق ليس مرتبة من مراتب التوحيد السفلى، وإنما هو أعلى مراتب الكفر، [وأنّ الغفلة لا تساوي الإنكار].

(المرتبة الثانية): «أن يصدّق بمعنى اللفظ قلبه كما صدّق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام»[2].

(المرتبة الثالثة): «أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق، وهو مقام المقربين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار.. فالشاهد موحِّد، بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً.. ولا يرى فاعلاً بالحقيقة إلا واحداً»[3].

---

(١) الإحياء ٤/ ٢٤٥.
(٢) الإحياء ٤/ ٢٤٥.
(٣) الإحياء ٤/ ٢٤٥.

(المرتبة الرابعة): «أن لا يرى في الوجود إلا واحداً، وهي مشاهدة الصدّيقين، وتسمّيه الصوفية: الفناء في التوحيد..

وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد»!!![1].

وهنا يبرز السؤال الآتي: أين هو التوحيد الذي دعا إليه النبي ﷺ والأنبياء من قبله بين هذه المراتب [وهو: التصديق بالقلب والقول باللسان، والعمل بالجوارح؟ لا وجود له].

وهل صحيح أن الغاية القصوى من التوحيد تتحقق برؤية كل ما في الوجود على أنه واحد [الله؟ هذه هي وحدة الوجود].

وقد أشار الغزالي إلى ذلك حين قال في مشكاة الأنوار:

فـ«لا إله إلا الله» توحيد العوام، و«لا هو إلا هو» توحيد الخواص؟!![2].

وحين ذكر الغزالي المرتبة الرابعة، علق على ذلك بقوله:

«فإن قلت كيف يتصور أن لا يشاهد إلا «واحداً» وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة -وهي كثيرة- فكيف

---

(١) الإحياء ٤/ ٢٤٥.

(٢) مشكاة الأنوار ١٩/ ٢٠.

يكون الكثير واحداً؟ .

أجاب الغزالي إجابة من يعوزه الدليل الشرعي بأن هذا من غاية علوم المكاشفات، وأن أسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب!!! واستدل بقول «العارفين»: إفشاء سر الربوبية كفر!![1].

لكنه أفشى شيئاً من هذا السر حين أجاب عن السؤال بضرب مثل عجيب لا يصدر عن [عالم بشرع الله، يردّ الأمر عند التنازع إلى نصوص وحيه]:

«هذا كما أن الإنسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه. وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد.. وكم من شخص يشاهد إنساناً ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه..

فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة.

فهو باعتبار من الاعتبارات واحد..

---

(١) الإحياء ٤/٢٤٦-٢٤٧.

وباعتبارات أُخر سواه كثير»[1].

ومعنى هذا تكون الغاية القصوى من التوحيد: وحدة الوجود واتحاد الخالق بالمخلوق!!!

ولتصدّق هذه الحقيقة المرة والتي قد لا تستسيغها ولا تتصور أن يكون مثلها قد صدر عن الغزالي - الملقب بحجة الإسلام - فاسمع بم يختم كلامه عن أهل المرتبة الرابعة قائلاً:

وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى [إبراهيم] الخواص يدور في الأسفار فقال: فيم أنت؟

فقال: أدور في الأسفار لأصحح حالتي في التوكل.

فقال الحسين: قد أفنيت عمرك في عمران باطنك، فأين الفناء في التوحيد؟

قال الغزالي: فكأن الخوّاص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد «فطالبه [الحلاج] بالمقام الرابع»!!![2].

إذن فالحلاج من أصحاب المرتبة الرابعة من مراتب التوحيد،

---

(١) الإحياء ٤/٢٤٦-٢٤٧.

(٢) الإحياء ٤/٢٤٧.

وهي أشرف مراتب التوحيد عند الغزالي، فعلى ماذا يدل هذا وأنت تعلم أن الحلاج زنديق حلولي كفّره أكابر المتصوفة [فضلاً عن أكابر الفقهاء وقتلوه بكفره].

لكن مرتبته في التوحيد -عند الغزالي- هي مرتبة الصدّيقين الذين لا يرون في الوجود إلاّ واحداً.

للربوبية سرّ لو أُظهر لبطلت النبوة

وقد أنكروا على الغزالي قوله عن سهل التستري:

«للربوبية سر لو أُظهر لبطلت النبوة. وللنبوة سر لو كُشف لبطل العلم، وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام»[1].

فأجاب:

«وأما سر العلم الذي يوجب كشفه بطلان الأحكام فإن كان كشفه من الله لقلوب ضعيفة بطلت الأحكام في حقها لمن يطّلع [على] ذلك السر من معرفة مآل الأشياء وعواقب الخلق، وكشف أسرار العبادة وما يظن من مقدور».

«فمن عرف مثلاً أنه من أهل الجنة لم يصلّ ولم يصم ولم يتعب نفسه في خير».

---

(١) الإحياء ١/ ١٠٠.

«وكذلك لو انكشف له أنه من أهل النار كمل انهماكه، فلا يحتاج إلى تعب زائد، ولا تصيبه مكابدة، فلو عرف كل واحد عاقبته ومآله بطلت الأحكام الجارية عليه»[1].

لكن الغزالي ذكر بأن العارفين -وهم أهل علوم المكاشفة- يطلعون على أسرار الملكوت وتحصل لهم المعرفة الحقيقية بذات الله[2]، وبكافة الأسرار التي لا يطلع عليها أصحاب علوم المعاملة، وهم العوام.

إذن فسِرُّ الربوبية معلوم عند «العارفين»، والنبوة باطلة عندهم وحدهم، ما داموا لم يظهروه لكافة الخلق، ولو أنهم أظهروه لأصبحت النبوة باطلة عند الجميع - «العوام» و«العارفين» - [اللهم أجرنا من الضلال عن شرعك].

وأما قوله: وللعلماء سر لو أظهروه لبطلت الأحكام.

فمعلوم من رأيه أن العلماء «العارفين» لا يعتمدون على الأحكام كما جاء بها الكتاب والسنة، إذ مصدرهم في تلقي العلوم هو الكشف، -كما تقدم- وهو التلقي من الله بلا واسطة،

---

(١) الإملاء ٥/٣٦ (ملحق الأحياء).

(٢) الإحياء ١/٢٠.

أو عن طريق ملك من الملائكة[1].

ولقد كان حذراً حين اكتفى بشرح عبارة «للعلماء سر لو أظهروه لبطلت الأحكام» ولم يشرح العبارتين الباقيتين وهما:

«للربوبية سر لو أظهروه لبطلت النبوة، وللنبوة سر لو كُشف لبطل العلم»؛ [فلا مجال لستر العورة بالشُّبَه في أي منهما].

قال الدكتور زكي مبارك:

«أظرف ما أجاب به الغزالي على المآخذ التي أُخذت عليه من أغلاط الإحياء: كثرة الأغلاط النحوية فيه، وأنه قليل الخبرة بالنحو، ثم ما أجمل نصحه لتلامذته بأن يُصلحوا ما يعثرون عليه من أشباه هذه الأغلاط! وياليته نصح بمثل هذا في إصلاح ما ضل فيه من الأحكام»[2].

هذا وقد اضطر السبكي مع تعصّبه له إلى ذكر هذه الحقيقة، معترفاً بأن الغزالي «كان يتخلل كلامه الكثير من الأخطاء النحوية، الأمر الذي عرّضه لنقد الآخرين»[3].

---

(١) الإحياء ٣/١٩-٢٤.

(٢) الأخلاق عند الغزالي ١١٣ للدكتور زكي مبارك.

(٣) طبقات السبكي ٤/ ١١٠.

الفصل السابع

الإملاء في إشكالات الإحياء

أما تصنيف الغزالي لكتاب «الإملاء» فقد ازدادت به إشكالات الإحياء غموضاً وإبهاماً. فقد سئل عن معنى قوله في الإحياء: ﴿فاستمع﴾ أي بسر قلبك: ﴿لما يوحى﴾، فلعلك تجد على النار هدى، ولعلك من سرادقات العرش تُنادي بما نودي به موسى: ﴿إني أنا ربك﴾؟.

فأجاب عن ذلك بأن معناه: «فرّغ قلبك لما يرد عليك من فوائد المزيد، وحوادث الصدق.. ﴿لما يوحى﴾ أي ما يرد من الله تعالى بواسطة ملك، أو إلقاء في الروع، أو مكاشفة بحقيقة، وذلك أن السالك إذا [اجتهد] في طريقه ذلك بحيث يصل بالمكاشفة والمشاهدة واليقين التام الذي يوجب المعرفة والعلم بتفاصيل العلوم، فلا يمتنع أن يسمع ما يوحى لغيره من غير أن يُقصد هو بذلك؛ إذ هو محل سماع الوحي على الدوام وموضع الملائكة، وكفى بها أنها الحضرة الربوبية».

«فإن قلت: ألم يقل الله تعالى: ﴿فلا يُظهر على غيبه أحداً. إلا من ارتضى من رسول﴾ وسماع الله بحجاب أو بغير حجاب، وعلم ما في الملكوت ومشاهدة الملائكة وما غاب عن المشاهدة والحسّ من أجلّ الغيوب! فكيف يطلع عليها من ليس برسول؟.

(الجواب): قلنا في الكلام حذف يدل على صحة تقديره الشرع الصادق، والمشاهدة الصورية. وهو أن يكون معناه:

إلا من ارتضى من رسول ومن اتبع الرسول بالإخلاص والإستقامة، أو عمل بما جاء به النبي.

وقد يكون تقدير الحذف:

فلا يُظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول أن يرسله إلى من يشاء من عباده في يقظة أو منام، فإنه يطلع على ذلك أيضاً. ويكون فائدة الإخبار بهذا في الآية الإمتنان على من رزقه الله تعالى علم شيء من مكنوناته.

ويحتمل وجه آخر، وهو أن يكون معناه والله أعلم:

﴿فلا يظهر على غيبه أحداً﴾ من سائر خلقه وأصناف عباده. ويكون معنى ﴿من رسول﴾ أي عن يد رسول من الملائكة»[1]

---

(١) الإملاء (ملحق بالإحياء) ٥/ ٣٣-٣٥.

وشطط الغزالي في فهمه لهذه الآية غاية في الوضوح. فمعنى الآية الراجح والمعروف بين المفسرين هو: ﴿إلا من ارتضى من رسول﴾ أي من نبي. وذهب بعض الأئمة إلى أن الرسول المستثنى هنا أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل. قاله سعيد بن جبير.

والجدير بالذكر أن الغزالي نفسه قد نهى في غير موضعٍ من إحيائه عن التأويل المسرف الذي ينتهجه بعضهم كقوله:

«فإن الألفاظ إذا صُرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل؛ اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ»[1]. [وهذا هو الحق].

ومعلوم أن الصحابة كانوا أكثر الخلق معرفة؛ وهم لم يعرفوا هذا النوع من الغيب الذي يزعم الغزالي انفتاحه على العارفين من المتصّوفة.

وقد جرى بهذا الرأي على القاعدة الفلسفية التي تقول بانفتاح علوم الغيب وما في اللوح المحفوظ على أهل البرهان.

---

(١) الإحياء ١/ ٣٧.

والاختلاف بين الغزالي وبين الفلاسفة هو اختلاف في التسمية. فإنه يسميهم «العارفين» بينما يسميهم الفلاسفة «أهل البرهان».

ولذلك كان كتاب «الإملاء» أكثر إشكالاً من الإحياء.

الفصل السابع

آراء علماء الشريعة في الغزالي وكتبه

أ- ابن الجوزي[1]:

قال عنه: «أبو حامد الغزالي، ذُكر أنه ولد سنة خمسين وأربعمائة، وتفقه على أبي المعالي الجويني، وبرع في النظر في مدة قريبة، وقاوم الأقران، وتوحد وصنف الكتب الحسان في الأصول والفروع التي انفرد بحسن وضعها وترتيبها، وتحقيق الكلام فيها، حتى أنه صنف في حياة استاذه الجويني، فنظر الجويني في كتابه المسمى بـ «المنحول» فقال له: «دفنتني وأنا حي، هلا صبرت حتى أموت».

ووقع له القبول من نظام المُلك، فرسم له التدريس بمدرسة بغداد، فدخل بغداد سنة أربع وثمانين وأربعمائة، ودرس بها،

---

(١) هو أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، ولد سنة ٥١٠هـ. وتوفي سنة ٥٩٧.

وحضره الأئمة الكبار، كابن عقيل، وأبي الخطاب، وتعجبوا من كلامه، واعتقدوا فائدته، ونقلوا كلامه في مصنفاتهم.

ثم إنه ترك التدريس والرياسة، ولبس الخام الغليظ، ولازم الصوم، وكان لا يأكل إلا من أجرة النسخ، وحج وعاد ثم رحل إلى الشام، وأقام ببيت المقدس، ودمشق مدة».

«وأخذ في تصنيف كتاب الإحياء في القدس، ثم أتمه بدمشق، إلا أنه وضعه على مذهب الصوفية، وترك أصول الفقه. مثل انه ذكر في محو الجاه ومجاهدة النفس: أن رجلاً أراد محو جاهه، فدخل الحمام فلبس ثياب غيره، ثم لبس ثيابه فوقها، ثم خرج يمشي على مهل حتى لحقوه، فأخذوها منه، وسُمي سارق الحمام. وذكر مثل هذا على سبيل التعليم للمريدين قبيح، لأن الفقه يحكم بقبح هذا، فإنه متى كان للحمام حافظ، وسرق سارق قُطع ثم لا يحل لمسلم أن يتعرض لأمر يأثم الناس به في حقه. وذكر أن رجلاً اشترى لحماً، فرأى نفسه تستحي من حمله إلى بيته، فعلقه في عنقه ومشى، وهذا في غاية القبح، ومثله كثير ليس هذا موضعه».

«وقد جمعتُ أغلاط الكتاب وسميته (إعلام الأحياء بأغلاط

الإحياء) وأشرت إلى بعض ذلك في كتابي المسمى بـ «تلبيس إبليس»، مثل ما ذكر في كتاب النكاح أن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ: «أنت الذي تزعم أنك نبيّ الله»[1] وهذا محال.

وأضاف قائلاً: «وإنما كان سبب إعراضه -فيما وضعه- عن مقتضى الفقه: أنه صحب الصوفية، فرأى حالتهم الغاية، وقال: إني أخذت الطريقة عن أبي علي الفارمدي وامتثلت ما كان يشير به من وظائف العبادات، واستدامة الذكر، إلى أن جزت تلك العقبات، وتكلفت تلك المشاق، وما حصَّلت ما كنت أطلبه. ثم إنه نظر في كتاب أبي طالب المكي وكلام المتصوفة من القدماء، فاجتذبه ذلك بمُرّه عما يوجبه الفقه، وذكر في كتاب الإحياء من الأحاديث الموضوعة وما لا يصح غير قليل، وسبب ذلك قلة معرفته بالنقل، فليته عرض تلك الأحاديث على من يعرف، وإنما نَقَل نقْلَ حاطب ليل»[2].

ومما أنكر ابن الجوزي على الغزالي تفسيره الكوكب والقمر

---

(١) انظر الإحياء ٢/٤٣.

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٩/١٦٨-١٦٩.

والشمس في قوله تعالى: ﴿فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكبا﴾. الخ، بأن الثلاثة أنوار هي حجب الله، فقال ابن الجوزي رحمه الله: «وهذا من جنس كلام الباطنية» تلبيس إبليس ١٦٦.

ب- ابن رشد[1]:

من جملة ما قاله ابن رشد في أبي حامد الغزالي: «ولم يلزم الغزالي مذهباً من المذاهب في كتبه، بل هو مع الأشعرية أشعري ومع الصوفية صوفي ومع الفلاسفة فيلسوف».

[وهذه مشكلة المفكرين «الإسلاميين» قديماً وحديثاً].

جـ- الطرطوشي[2]:

قال في رسالة له إلى ابن مظفر: «فأما ما ذكرت من أبي حامد، فقد رأيته وكلمته فرأيته جليلاً من أهل العلم واجتمع فيه

---

(١) [محمد بن أحمد بن رشد القرطبي ٥٢٠-٥٩٥هـ. من كبار فقهاء المالكية وكتابه بداية المجتهد ونهاية المقتصد في الفقه لا نظير له، وأكثر التأليف في الفلسفة].

(٢) أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي فقيه مالكي رحل إلى الشرق عام ٤٧٦ ودرس على الشاشي وغيره. توفي سنة ٥٢٠هـ.

العقل والفهم، ومارس العلوم طول عمره، وفاق في ذلك معظم أهل زمانه، ثم بدا له العدول عن طريق العلماء، فتصوف وهجر العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر، وأرباب القلوب، ووساوس الشيطان، ثم شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين، ولقد كاد أن ينسلخ من الدين، فلما عمل الإحياء عمد يتكلم في علوم الأحوال، ومرامز الصوفية وكان غير أنيس بها، ولا خبير بمعرفتها، فسقط على أم رأسه، وشحن كتابه بالموضوعات»[1].

د- ابن الصلاح[2]:

قال ابن الصلاح بأن «في تواليف أبي حامد أشياء لم يرتضها أهل مذهبه من الشذوذ. منها قوله في المنطق: هو مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط به فلا ثقة له بمعلوم أصلاً». قال: «فهذا مردود، إذ كل صحيح الذهن منطقي بالطبع، وكم من إمام رفع

---

(١) طبقات السبكي ٤/ ١٢٤. وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٣٩ وانظر سيرة الغزالي لعبدالكريم عثمان ٧٨.

(٢) هو أبو عمرو بن الصلاح المتوفى سنة ٦٤٣هـ. وله فتوى مشهورة بتحريم تعاطي المنطق.

بالمنطق رأساً؟ فأما كتاب «المضنون به على غيره أهله» فمعاذ الله أن يكون له، شاهدت على نسخة له بخط القاضي كمال الدين محمد بن عبدالله الشهروزي أنه موضوع على الغزالي»[1]. [وذلك احساناً للظن به عما فيه من المخالفات].

لكن ابن تيمية يتجه إلى إثبات نسبة هذا الكتاب إلى الغزالي، مع تصريحه بأن من العلماء من أنكر ذلك، فإنه يقول: «وأما المضنون به على غير أهله فقد كان طائفة من العلماء يكذبون ثبوته عنه، وأما أهل الخبرة به وبحاله فيعلمون أن هذا كله كلامه لعلمهم بمواد كلامه ومشابهة بعضه بعضاً، ولكن كان هو وأمثاله مضطربين، لا يثبت على قول ثابت لأن عندهم من الذكاء والطلب ما يتشوفون به إلى [ما يسمونه] طريقة خاصة الخلق[2].

هـ ابن تيمية[3]:

حكم شيخ الإسلام على كتاب الإحياء: بأن غالبه جيد ولكن

---

(١) سيرة الغزالي ٧٢.

(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ٦٥.

(٣) أحمد بن عبدالحليم الحرّاني الدمشقي من أكبر فقهاء الحنابلة ولد في حرّان بين دجلة والفرات عام ٦٦١ وتوفي في دمشق عام ٧٢٨هـ).

فيه مواد مذمومة وفاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدوّاً للمسلمين وألبسه ثيابهم، وأضاف بأنه قد أنكر بعضُ أئمة الدين على أبي حامد هذا الذي في كتبه وقالوا: أمرضه الشفا، يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة». وقال: «وفي الإحياء أحاديث وآثار ضعيفة بل موضوعة كثيرة» وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترّهاتهم، وفيه مع ذلك من كلام المشايخ المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة ما هو أكثر مما يُردّ منه»[1].

و- الذهبي[2]:

قال الذهبي عن «الإحياء»: «أما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد، من طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية نسأل الله علماً نافعاً.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٦/ ٢١٠.

(٢) هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد التركماني الدمشقي ولد سنة ٦٧٣هـ. وتوفي سنة ٧٤٨ بدمشق. اشتهر بالحديث ورجاله. ومصنفاته عديدة أشهرها وأجلها كتاب «سير أعلام النبلاء».

تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن وفسّره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً، ولم يأت نهي عنه. قال ﷺ: «من رغب عن سنتي فليس مني». فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله وبإدمان النظر في الصحيحين، وسنن النسائي، ورياض النووي وأذكاره، تفلح وتنجح. وإياك وآراء عبّاد الفلاسفة، ووظائف أهل الرياضات، وجوع الرهبان وخُطّاب طيش رؤوس أصحاب الخلوات، فكل الخير في متابعة الحنيفية السمحة، فاللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم».

ولم ينس الذهبي أن يوفي الغزالي حقه قائلاً: «فرحم الله الإمام أبا حامد فأين مثله في علومه وفضائله؟ ولكن لا ندعي عصمة من الغلط والخطأ. ولا تقليد في الأصول»[1].

المازري[2]:

قال الذهبي: «ثم إن المازري أثنى على أبي حامد في الفقه وقال: هو بالفقه أعرف منه بأصوله، وذلك أنه قرأ علوم الفلسفة

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٤٢٣٤٠ و ٣٤٦.

(٢) هو محمد بن علي الفقيه المالكي المحدث ولد في «مازر» من صقلية وتوفي سنة ٥٣٦.

قبل استبحاره في فن الأصول، فأكسبته الفلسفة جرأةً على المعاني، وتسهلاً للهجوم على الحقائق، لأن الفلاسفة مع خواطرها لا يَزَعُها شرع. وعرّفني صاحب له أنه كان له عكوف على رسائل إخوان الصفا.. ورأيت أبا حامد يعوِّل على -ابن سينا- في أكثر ما يشير إليه من علوم الفلسفة وذكر بعد ذلك كتب أبي حيان التوحيدي، وعندي أنه عليه عَوّل في مذهب التصوف» انتهى كلام الذهبي في السير[١].

قال المازري: «فحقيق أن لا يوثق بكل ما ينقل وأن يُظن به التساهل في رواية ما لم يثبت عنده صحته.. ومن لم يكن عنده من البسطة في العلم ما يعتصم به من غوائل هذا الكتاب [الإحياء] فإن قراءته لا تجوز وإن كان فيه ما يُنتفع به»[٢].

---

(١) سيرة الغزالي ٧٩-٨٠ وانظر طبقات السبكي.
(٢) شرح عقيدة الأصفهانية ١٣٤.

خاتمة

ومع كل ما ذكرته من الحقائق التي رجعت في نقلها إلى كتب المترجم له- قبل كتب الذين ترجموا له- فقد ذُكر عنه أنه قد رجع عن ذلك كله واشتغل في أواخر أيامه بالحديث وعلومه، حتى إنه «مات وصحيح البخاري على صدره» كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية. غفر الله لنا ولهم جميعاً.

والله أعلم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفهرس